المهلهل والنقائض الشعرية

الباحثة/ حنان مصطفى علي

ملخص البحث:

يتكون البحث من مقدمة حول مفهوم مصطلح النقائض ورأي النقاد القدماء والمحدثين حول هذا المصطلح ، ثم دراسة هذا الفن في شعر المهلهل ، وكيف بدأ عنده وتطور حتى اكتمل مع نهاية حرب البسوس ، وكيف أنه أعطانا أبرز نماذج هذا النمط الإبداعي في تاريخ شعرنا العربي كله.

فقصيدة " قربا مربط المشهر مني" والتي رد بها على الحارث بن عباد ، تعد من أكمل القصائد وأقواها واكتمالها لهذا النمط في تاريخ شعرنا كله.

وقد ركز البحث على تحليل كل هذه الأنماط تحليلا وافيا، والإشارة إلى القصائد المنقوضة من الطرف الآخر وذكرها وذكر بحرها العروضي.

مما يؤكد اكتمال العناصر الفنية كلها في نقائض المهلهل.

Search Summary:

The research consists of an introduction to the concept of the term "contradiction" and the opinion of ancient critics and speakers about the term, and then the study of this art in the poetry of Al-Muhalhal, how it began and evolved until it was completed with the end of the war of the Al-Basous War, and how it gave us the most prominent models of this creative pattern in the history of our entire Arab poetry.

The poem "Near the Celebrity Stud of Me", which he replied to Harith bin Abbad, is one of the fullest, strongest and most complete poems of this pattern in the history of our whole poetry.

The research focused on thoroughly analysing all these patterns, referring to the poems undermined by the other party and mentioning them and their wide sea.

This confirms the completeness of all the technical elements in Al-Muhalhal discounts.

مقدمة حول مفهوم مصطلح النقائض :

النقض هو " إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء، ونقض البناء: هدمه.. والنقيضة في الشعر: ما يُنقضُ به، وكذلك المناقضة في الشعر ينقد الشاعر الآخر ما قاله الأول "[١] وهذا هو المفهوم اللغوي للنقائض، " أما الصورة الاصطلاحية التي انتهى إليها هذا الفن منذ الجاهلية فالأصل فيها أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيًا أو مفتخرًا ملتزمًا البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول، ومعنى هذا أنه لابد من وحدة الموضوع فخرا أو هجاء أو سياسة أو رثاء أو نسيبا أو جملة من هذه الفنون المعروفة . ولابد من وحدة البحر فهو الشكل الموسيقي الذي يجمع بين النقيضتين.. ولابد من وحدة الروي وحركته"[٢]، أما عن نشأة هذا الفن (النقائض) فكثير من العلماء أكدوا أن له جذورًا في الشعر الجاهلي؛ لأنه عندما نقول (النقائض) يتصور الجميع هذا الفن الذي ازدهر وشاع ذكره كثيرا في عصر بني أمية، خاصة بين جرير والفرزدق والأخطل . ويرى الدكتور شوقي ضيف بأن النقائض الأموية هي تطوير لفن الهجاء في العصر الجاهلي[٣]، ويرى الدكتور صلاح الدين الهادي بأن " النقائض كانت فنًّا شعريًّا معروفًا – إلى حد ما – في العصر الجاهلي لكنها في أول أمرها لم تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وشرائطها الفنية "[٤]، أما الأستاذ أحمد الشايب فقد قطع بوجود النقائض منذ بداية الشعر الجاهلي، لكنه ربط هذه النقائض بملمحي الفخر والهجاء[٥]، وهذا ما أكده وشدَّد عليه الدكتور صلاح رزق، إذ ربط النقائض بملمحي الفخر والهجاء أيضًا[٦].

وعلى ذلك يكون هذا الفن ليس بالجديد الطارئ على الشعر الجاهلي ، وإنما نشأ معه منذ بداياته الأولى إذ أوجدته ظروف الحرب والقتال، فكانت المعارك تشتد ويستعمل فيها السيوف والرماح، وكذلك المعارك القولية المتقابلة بين طرفي الحرب.[٧]

وإذا كانت المعارك والخصومات هي من أشد العوامل التي فرضت وجود النقائض فإن ذلك يتفق تمامًا مع شاعرنا الفارس المحارب الذي يقود المعارك في الميدان بمهارة ويرد غارات الأعداء، وفي الوقت نفسه يخوض حربًا إعلامية شعرية رائعة في

---

[١]–اللسان " نقض " (٢٦٢/٤)، والقاموس المحيط " نقض " (٣٤٧/٢).

[٢]–تاريخ النقائض، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٣.

[٣]–انظر: التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثامنة، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٦٣، ١٦٤.

[٤]–اتجاهات الشعر في العصر الأموي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص ٢٧٣.

[٥]–انظر: تاريخ النقائض، مرجع سابق، ص ٤٤ – ٤٥.

[٦]–انظر: الأدب الأموي، الدكتور صلاح رزق، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٩٦.

٧ ينظر: شعر الحارث بن عباد توثيق ودراسة موضوعية وفنية ، حنان مصطفى محفوظ ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة الزقازيق ، ٢٠١٩ ، ص (٥٧).

دحر الأعداء فقضًا كما دحرهم غزوًا أو قتالًا، وإذا كان هناك تأريخ لفن النقائض من الناحية الزمنية. فإن المهلهل يعد من أوائل الشعراء الذين أصلوا هذا الفن إن لم يكن أولهم على الإطلاق، لأننا لم نعثر قبل المهلهل أو في زمنه على نقائض مكتملة بمعناها الصحيح إلا عند المهلهل ومَنْ يتناقض معه، وربما وردت بعض المقطعات الرجزية المتبادلة بين كليب وجساس، وتوجد بعض القصائد التي تنتمي إلى النقائض، وهي قصائد متبادلة بين كليب وائل بن ربيعة والتبع اليماني، فالتبع يهدد بكرًا وتغلب، فيقول في قصيدة أولها[1]:

يـــاذ الكـــلام كـــأنني مـــورود مـــن دار حميـــر فـــالفؤاد عميـــد

ويرد عليه ناقضًا المعنى بقصيدة على نفس البحر (الكامل) والقافية، تبدأ بقوله[2]:

يـــاذ الكـــلام نـــسيت عقـــد جـــدودي فلمـــا أنفـــت وأنـــت غيـــر حميـــد

وقد انفرد كتاب بكر وتغلب بهذه النصوص النقائضية ولم ترد في مصدر آخر، ومن ثم لا يمكن الجزم بأن هذه هي بدايات فن النقائض.

وإذا ما انتقلنا إلى نقائض المهلهل مع غيره من الشعراء، فإننا نجد المهلهل وإن لم يكن البادئ بالنقض فإنه مبدع القول الذي استوجب على الطرف الآخر نقضه، لتفرد المعنى وقوة دلالته، فعندما اشتد الخلاف بين كليب وجساس، وبدأت الفتنة تطل برأسها على الحيين بكر وتغلب كان المهلهل هو الأسبق لوأد نار هذه الفتنة، وما كان لها أن توأد إلا بمواجهة مع أخيه وملكه، يحذره فيها من عواقب الاعتداء على من يجب عليه حمايته، ومهما كان الطرف الآخر مخطئًا فعليه هو التحمل والصبر؛ لأن ما يفعله من خير أو شر سوف يُذكر إلى آخر الدهر، يقول المهلهل[3]:

أَخٌ وَحَـــريمٌ سَـــيِّئٌ إِن قَطَعتَـــهُ فَقَطـــعُ سُـــعودٍ هَـــدمُها لَـــكَ هـــادِمُ

وَقَفـــتَ عَلـــى ثِنتَـــينِ إِحـــداهُما دَمٌ وَأُخـــرى بِهـــا مِنّـــا تُحَـــزُّ الغَلاصِـــمُ

فَما أَنـــتَ إِلّـــا بَـــينَ هـــاتَينِ غـــائِصٌ وَكِلتاهُمـــا بَحـــرٌ وَذو الغَـــيِّ نـــادِمُ

فَمَنقَـــصَةٌ فـــي هَـــذِهِ وَمَذَلَّـــةٌ وَشَـــرٌّ شِـــمرٌّ بَيـــنَكُم مُتَفـــاقِمُ

وَكُـــلُّ حِمـــيمٍ أَو أَخٍ ذي قَرابَـــةٍ لَـــكَ اليَـــومَ حَتّـــى آخِـــرِ الـــدَهرِ لائِـــمُ

---

١ كتاب بكر وتغلب ابني وائل ، مطبعة نخبة الأخيار ، ١٣٠٥هـ ، ص (٢١)

٢ السابق، ص (٢٢)

٣ الأبيات والرد عليها في شعراء النصرانية (٢/ ١٦١) وهما على وزن (البحر الطويل)

فَـــأَخِّر فَـــإِنَّ الـــشَرَّ يَحـــسُنُ آخِـــراً وَقَـــدِّم فَـــإِنَّ الحُـــرَّ لِلغَـــيظِ كـــاظِمُ

وهذه اللهجة الحاسمة من المهلهل هي التي أثارت كليبًا، فهو لم يتعود على تلقي الرأي أو النصيحة من أحد، وإذا كان المهلهل يطلب من أخيه مزيدًا من الحلم وكثيرًا من الصبر وكظم الغيظ ومراعاة القربى وصلة الرحم أو الحفاظ على لُحْمَة الحيين المتجاورين وهما أبناء عم من دم واحد، فإن كليبًا ينقض كل هذه المعاني بقوله:

سَأَمضي لَهُ قِدماً وَلَو شابَ في الَّذي أَهِـــمُّ بِـــهِ فيمـــا صَـــنَعتُ المَقـــادِمُ

مَخافِـــةَ قَـــولٍ أَن يُخـــالِفَ فِعلُـــهُ وَأَن يَهـــدِمَ العِـــزَّ المُـــشَيَّدَ هـــادِمُ

ومثلما كان الشعر لاذعًا على مسمع كليب وجعله يحاول نقض ما قال المهلهل، فإن شعر المهلهل بعد مقتل أخيه كان أشد وقعًا وألمًا، ومن ثم علت نبرة التهديد والوعيد مُحاطة بمشاعر الحزن والأسى على مقتل كليب، فالدموع من عينيه تجري وكأنها نهر متدفق، وأصبحت الدنيا كلها بعد كليب ظلامًا دامسًا وحالك الظلام فقد فجعت قبائل نزار كلها بفارسها وسيدها، ثم يصف قاتله بالقزامة المعنوية (فسيل القوم) الذي نجا بفراره حاملًا عار الجبن على كاهله، ومن ثم فالعهد العهد بترك الخمر واللهو، والتفرغ للثأر المقدس حتى يبيد بكرًا إبادة لا تبقي ولا تزر، يقول[1]:

أَهـــاجَ قَـــذاءَ عَينِـــيَ الادِّكـــارُ هُـــدُوّاً فَالـــدُموعُ لَهـــا اِنحِـــدارُ

وَصـــارَ اللَيـــلُ مُـــشتَمِلاً عَلَينـــا كَـــأَنَّ اللَيـــلَ لَـــيسَ لَـــهُ نَهـــارُ

وَأَبكـــي وَالنُجـــومُ مُطَلِّعـــاتٌ كَـــأَن لَـــم تَحوِهـــا عَنّـــي البِحـــارُ

عَلـــى مَـــن لَـــو نُعيـــتُ وَكـــانَ حَيّـــاً لَقـــادَ الخَيـــلَ يَحجُبُهـــا الغُبـــارُ

دَعَوتُـــكَ يـــا كُلَيـــبُ فَلَـــم تُجِبنـــي وَكَيـــفَ يُجيبُنـــي البَلَـــدُ القِفـــارُ

أَجِبنـــي يـــا كُلَيـــبُ خَـــلاكَ ذَمٌّ لَقَـــد فُجِعَـــت بِفارِسِـــها نِـــزارُ

أَتَغـــدوا يـــا كُلَيـــبُ مَعـــي إِذا مـــا جَبـــانُ القَـــومِ أَنجـــاهُ الفِـــرارُ

أَقـــولُ لِتَغلِـــبٍ وَالعِـــزُّ فيهـــا أَثيروهـــا لِـــذَلِكُمُ اِنتِـــصارُ

[1] الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٤١-٤٤ وهما على وزن (الوافر)

خُـذِ العَهـدَ الأَكيـدَ عَلَـيَّ عُمـري بِتَركـي كُـلَّ مـا حَـوَتِ الـديارُ

وَهَجـري الغانِيـاتِ وَشُـربَ كَـأسٍ وَلُبـسي جُبَّـةً لا تُـستَعارُ

وَلَـستُ بِخـالِعٍ درعـي وَسَـيفي إِلـى أَن يَخلَـعَ اللَيـلَ النَهـارُ

وَإِلّـا أَن تَبيـدَ سَـراةُ بَكـرٍ فَـلا يَبقـى لَهـا أَبَـداً أَثـارُ

وهذا التهديد الواضح والصريح من المهلهل أرغم جساسًا أن يرد عليه محاولًا نقض كل المعاني التي تناولها المهلهل، فهو يعترف بمكانة كليب وحزنهم عليه أيضًا، لكنه كان باغيًا نال ما يستحق، وأن تهديد المهلهل لا يخيف بني بكر؛ لأنهم يعيشون مع الموت دائمًا ومستعدون للقاء المهلهل كل الاستعداد، يقول جساس:

أَلا أَبلِـغ مُهَلهِـلَ مـا لَـدَينا فَأَدمُعُنـا كَأَدمُعِـهِ غِـزارُ

بَكَينـا وائِـلَ البـاغي عَلَينـا وَكُـلٌّ لَـيسَ مِنـهُ لَـهُ اِصـطِبارُ

وَكُـلٌّ قَـد لَقـي مـا قَـد لَقينـا وَشَـرُّ العَـيشِ مـا فيـهِ غِيـارُ

وَنَحـنُ مَـعَ المَنايـا كُـلَّ يَـومٍ وَلا يُنجـي مِـنَ المَـوتِ الفِـرارُ

وعندما يبكي المهلهل أخاه، ويذرف عليه الدموع مُصوِّرًا الحياة بعد مقتله بأنها قفر بلاقع لا حياة فيها، وأن الدنيا بدون كليب لا خير فيها ولا متعة إذ كان بهجة للنفس ودافئًا يحيط بالجميع وسياجًا من الأمن والعز والسؤدد، وأن الذي دفن تحت الثرى ليس الجثمان المادي الذي يفنى بمرور الزمن وإنما هو العز والسؤدد والجاه والكبرياء، وأن وقع نعي أخيه عليه كأن الدنيا قد حدث بها زلزال وأطاحت بكل ما فيها، ولو أن السماء سقطت على الأرض وقتلت البشر أجمعين كان ذلك أهون عليه من تقبل خبر مقتله، لذلك كله يكون التهديد مناسبًا للحدث وموازيًا له، فالخيل جاهزة والفرسان مستعدون لإبادة الأعداء وأن الصلح مستحيل ما دامت الشمس تشرق وتسير في مسارها، وهذا التهديد يكون مستفزًّا من عدة نواحٍ، فالمغالاة في البكاء على كليب في حد ذاتها مستفزة للخصم؛ لأنها تجسد الجريمة وتظهرها، وتأبين كليب بأنه فارس نزار الأوحد يؤلم جساسًا لأنه يشعره بالضآلة، وتصريح المهلهل بأن الدنيا كلها وما عليها من بشر لا قيمة لها قياسًا بكليب يزيد الأمر صعوبة على جساس ؛ لأن الناس تتناول هذا الشعر وتتفاعل معه، يقول المهلهل:

الدار قفراً عفاها بعد ساكنهـــــا بالريح بعد ارتحال الحي عافيها
وغالها الدهر أن الدهر ذو غِيَرٍ فأصبحت بلقعاً قفراً مغانيها
كُلَيبُ لا خَيرَ في الدُنيا وَمَن فيها إذ أَنتَ خَلَّيتَها فيمَن يُخَلّيها
نَعى النُعاةُ كُلَيباً لي فَقُلتُ لَهُم مادَت بِنا الأَرضُ أَم مادَت رَواسيها
لَيتَ السَماءَ عَلى مَن تَحتَها وَقَعَت وَمادت الأَرضُ فَاندكت بِمَن فيها
الحلم والجُود كانا مِن طبائعه ما كُلَّ آلائِهِ يا قَومُ أُحصيها
النـاحِرُ الكومَ ما يَنفَكُّ يُطعِمُها وَالواهِبُ المائَةَ الحَمرا بِراعيها
كليب أي فتى حرب ومعركة تقود خيلًا إلى خيلٍ تُلاقِيها
لا تسأل الحربَ عن حربٍ ومن فيها والحربُ إذ ذاك قد شَبَّتْ دَواليهَا
تَقَلَّعُ الخيلُ عن قتلى مُصرَّعةٍ كالخُشْبِ مال عليها سَيْلُ وَادِيها
لا أَصلَحَ اللَهُ مِنّا مَن يُصالِحُكُم حتى يصالح ذئب المعز راعيها

ويأتي رد جساس حاملًا تهديدًا مقابل التهديد بل أشد وأنكى فإن الذين قتلوا كليبًا بناقة قادرون على دحر الأعداء، وعليه بالصبر في ميدان النزال؛ لأن بني بكر لا يخيفهم التهديد والوعيد، فمهما كانت مكانة كليب عند المهلهل، وأنه يساوي الدنيا وما عليها وأنه العز والسؤدد فقد قتلناه بناقة الجار، ومن ثم يهون علينا قتل ما نريد منكم، يقول[1]:

أَبْلِغْ مُهَلهِلَ عَنْ بَكْرٍ مُغَلْغَلَةً مَنَّتْكَ نفسُكَ مِنْ غَيٍّ أَمَانِيهَا
تَبكي كُلَيبًا وقَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ حَقًا وتُضْمِرُ أَشْيَاءً تُرَجِّيهَا
فاصْبِرْ لِبَكْرٍ فإنَّ الحربَ قَدْ لَقِحَتْ وعَزِّ نَفْسَكَ عَمَّنْ لا يُوَالِيها
فَقَد قَتَلنا كُلَيباً لَم نُبالِ بِهِ بِنابِ جارٍ وَدونَ القَتلِ يَكفيها
نَحمي الذِمارَ وَنَحمي كُلَّ أَرمَلَةٍ حَقّاً وَنَدفَعُ عَنها مَن يُعاديها

١ شعر المهلهل والرد عليه على وزن البحر (البسيط)، وهما في كتاب بكر وتغلب ص ٤٤-٤٦.

والمعنى السابق يتكرر مرة أخرى بين المهلهل وجساس، فالمهلهل في قصيدته الشهيرة الداهية (المجمهرة) يؤكد على أن جساسًا قد ارتكب أمرًا فوق طاقته وطاقة أهله، وأنه بهذه الجريمة كتب على نفسه وعلى قبيلته الفناء؛ لأنه مثل الذي ألقى بنفسه في أمواج البحر دون أن يتعلم السباحة وطرق النجاة، وعلى ذلك فسوف تشرب الرماح من دمائهم، وأنه لن يترك البكريين يهنؤون بالعيش ما دامت الحياة، يقول المهلهل[1]:

جارَت بَنو بَكرٍ ولَم يَعدِلوا وَالمَرءُ قَد يَعرِفُ قَصدَ الطَريق

حَلَّت رِكابُ البَغيِ مِن وائِلٍ في رَهطِ جَسّاسٍ ثِقالِ الوُسوق

يا أَيُّها الجاني عَلى قَومِهِ ما لَم يَكُن كانَ لَهُ بِالخَليق

كَقاذِفَ يَوماً بِأَجرامِهِ في هُوَّةٍ لَيسَ لَها مِن طَريق

إِنَّ رُكوبَ البَحرِ ما لَم يَكُن ذا مَصدَرٍ مِن تَهلِكاتِ الغَريق

قُل لِبَني ذُهلٍ يَرُدَّنَهُ أَو يَصبِروا لِلصَّيلَمِ الخَنفَقيق

فَقَد تَرَوَّيتُم وَما ذُقتُم تَوبيلَهُ فَاِعتَرِفوا بِالمَذوق

أَبلِغ بَني شَيبانَ عَنّا فَقَد أَضرَمتُم نيرانَ حَربٍ عَقوق

أَصبَحَ ما بَينَ بَني وائِلٍ مُنقَطِعَ الحَبلِ بَعيدَ الصَديق

غَداً نُساقي فَاِعلَموا بَينَنا أَرماحَنا مِن عاتِكٍ كَالرَحيق

لَيسَ أَخوكُم تارِكاً وِترَهُ دونَ تَقَضّي وِترُهُ بِالمُفيق

وهنا يحاول جساس نقض قول المهلهل، فالذي بدأ البغي والعدوان والظلم هم بنو تغلب، وعليهم تحمل النتيجة الحتمية لهذا الظلم، وأن بني تغلب قد جرَّبَت رماحنا وهي مُشْرَعة في صدورهم غير مرة، وأنهم يشعلون الحرب ظلمًا؛ فهم ليسوا أبناء عم بل هم أشد الأعداء، وأنهم هم الذين شرَّعُوا البغي في بني وائل (بكر وتغلب) وقد حصدوا ما زرعوه، وأن بني بكر قد أردوا كليبًا قتيلًا فهل يصعب عليهم قتل كل من هم دونه؟، يقول جساس:

١ الأبيات والرد عليها على وزن البحر (السريع)، الشعر والرد عليه في كتاب بكر وتغلب ص ٥٣– ٥٥.

إنّـــا عَلـــى مـــا كـــانَ مِـــن حـــادِثٍ لَـــم نَبـــدَأ القَـــومَ بِـــذاتِ العُقـــوق
قَـــد جَرَّبَـــت تَغلِـــبُ أَرماحِنـــا بِـــالطَعنِ إِذ جـــاروا وَحَـــزِّ الحُلـــوق
لَـــم يَـــنهَهُم ذَلِـــكَ عَـــن بَغـــيِهِم يَومـــاً وَلَـــم يَعتَرِفـــوا بِـــالحُقوق
وَأَســـعَروا لِلحَـــربِ نيرانَهـــا لِلظُلـــمِ فينـــا بادِيـــاً وَالفُـــسوق
أَلَـــيسَ مَـــن أَردى كُلَيبـــاً لِمَـــن دونِ كُلَيـــبٍ مِـــنكُمُ بِـــالمُطيق
مَـــن شَـــرَعَ العُـــدوانَ فـــي وائِـــلٍ اِقتَـــرَفَ الظُلـــمَ وَضَـــنكَ المَـــضيق
قَـــدْ كَـــانَ مِـــنْكُم حـــادِثٌ ذُقْـــتُمُ عِقابَـــهُ واعْتَرِفُـــوا بالمَـــذُوقِ
بَـــدَأتُمُ بِـــالظُلمِ فـــي قَـــومِكُمُ وَكُنـــتُم مِثـــلَ العَـــدُوِّ الحَنيـــق
وَالظُلـــمُ حَـــوضٌ لَـــيسَ يُـــسقى بِـــهِ ذو مَنعَـــةٍ فـــي كُـــلِّ أَمـــرٍ يُطيـــق
فَـــإِن أَبَيـــتُم فَارِكَبوهـــا بِمـــا فيهـــا مِـــنَ الفِتنَـــةِ ذاتِ البُـــروق

ويخاطب المهلهل بني ذهل (قوم جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان) ويؤكد لهم أنهم بفعلتهم البشعة قد أوردوا قومهم بني بكر جميعًا التهلكة والفناء؛ لأن القتيل ليس فردًا عاديًّا، وليس من السوقة، وإنما هو الملك الشامخ مثل ضوء الشمس لا يمكن إنكاره فهو ساطع منير للجميع، يعرفه القاصي والداني، يقول[1]:

يَـــا بَنِـــي ذُهْـــلٍ لَقَـــدْ هَيَّجْتُمُـــوا لِبَنِـــي بَكْـــرٍ حُروبًـــا كَـــالحَرِيقْ
وبَعَثْـــتُم غَـــارَةً فِـــي جَـــارِكُمْ ذَاتِ إِعْـــصَارٍ وريـــحٍ وبَرِيـــقْ
وتَقَحَّمْـــتُمْ عَلَـــى عَرِيـــسَةٍ حَولَهَـــا كُـــلُّ أَبِ شِـــبْلٍ حَنِيـــقْ
أَمْـــرُءٌ لَـــيسَ كَآسَـــادِ القُـــرَى بَـــلْ هِزَبْـــرٌ حِـــيْنَ يُلقَـــى فِـــي مَـــضِيقْ
لَـــمْ يَكُـــنْ فِيهَـــا كُلَيْـــبٌ كَـــامرِئٍ بَـــل كَـــسُلطَانٍ علـــى عَهْـــدٍ وَثِيـــقْ
مَلِـــكٌ تَقْدُمُـــهُ رَجْرَاجَـــةٌ مِثْـــلَ ذِرِّ الـــشَّمسِ قُـــدَّامَ الـــشُّرُوقْ

[1] الأبيات والرد عليها على وزن البحر (الرمل)

ثُـــمَّ لا تُبْقِـــي علَـــى ذِي لمَّـــةٍ بَعْـــدَهُ مِـــنْكُمْ عَـــدُوٍّ أو صَـــدِيقْ

وبتفحص الأبيات نلمح دلالات التعريض بالقاتل، فإذا كان المقتول علمًـا واضـحًا كضوء الشمس فإن المعنى الدلالي المعاكس يثبت للقاتل، فهو نكرة لا قيمة له، ومـن ثـم يدخل إلى ساحة النقائض هنا شاعر بني بكر الشهير الفند الزِّمَّاني ناقضًا قـول المهلهـل، يقول:

لَـيسَ يُغنـي القَـولُ إلّـا لامـرِئٍ صـادِقٍ بِـالقَولِ يَومـاً أَو مُطيـقِ

إنَّ مَـن أَوردَ صَـعباً نَفسَهُ هُـوَّةً ذاتَ ازورارٍ وَمَـضيقِ

لاحِـقٌ تَغلِـبَ فـي عُدوانِـهِ بادِيـاً فـي الظُلـمِ فينـا وَالفُسوقِ

ذاكَ مـا ذاكَ وَلَـو ذا حِفظَـةٍ بَطَـلٌ يَقطَـعُ أَقـرابَ الصَديقِ

مِـن رَئـيسٍ لَـم يُراقِـب إِذ غَـدا حُرمَـةَ الجـارِ وَلا حَـقّ الرَفيـقِ

رَفَـضَ القَـومَ وَلَـم يَـرحَمهُمُ وَرَمانـا رَمَيَـةَ المَـولى العَقـوقِ

نَحـنُ لَمّـا نَبتَـدِع ظُلمـاً بِـهِ فَتَـصَدّى وَبَغـى الظُلـمَ السَحيقِ

فهو يحمل كليبًا المسؤولية عن مصرعه، فواجب رئيس القوم احترام رعيته وعدم البغي عليهم أو إذلالهم، لأن الكرامة الإنسانية لبني بكر ترفض الذلة والمهانة.

وتأخذ النقائض عند المهلهل المنحنى التأصيلي لهذا الفـن عنـدما يتنـاول شـعر الحارث بن عباد بالنقض، في تحوّل تام للمعارك على الأرض وللنقائض المـصاحبة لهـذه المعارك أو السابقة لها أو التالية لها، إذ أصبح للنقائض هنا معنى وقيمة، تتناولهـا القوافـل والركبان وينتظرها الناس من الطرفين؛ لأنها لم تعد وقفًا على جساس والمهلهـل، كمـا أن دخول الحارث بن عباد ساحة الوغى والحرب الكلامية بالشعر جعل حرب البسوس تأخـذ شكلًا آخر، ونقلة نوعية كبرى غيرت مسار المعارك بعد وقفة تحلاق اللمـم التـي قادهـا الحارث بن عباد مع بني بكر والتي أسر فيها المهلهل وجز ناصيته ثم أطلقه.[1]

"ولما كانت حرب البسوس اعتزل هو القتال واستعظم قتل كليب لسؤْدَده في ناقـة، واعتزل الحرب مع قبائل من بكر منها يشكر وعجل وقيس بن ثعلبة، وكـان هـو رأسـها وشاعرها في زمانه فنزع سنان رمحه ووتر قوسه، وقال لبني شيبان ظلمتم قومكم وقتلـتم

١ ينظر تفاصيل ذلك في شعراء النصرانية في الجاهلية ، الأب لويس شيخو ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، (د.ت) ، (٣/ ٢٧٦)

سيدكم وهدمتم عزكم وترعتم ملككم، والله لا نساعدكم. فانصرفوا خائبين ولم يحارب أحد منهم مع شيبان حتى أسرف المهلهل في القتل، وكان من أمره ما كان وقتل ولده بجيرا"[1] وكان الحارث " سيدًا شريفًا فأراد أن يصلح عشيرته بدم ولده، حتى بلغه أن مهلهلًا قال لما قتل بجيرًا قال: بشسع نعل كليب، فغضب الحارث وأخذته حمية الجاهلية، وبلغ ذلك قومه فطرقوه ليلًا على خيولهم مستسلمين للحرب، وقالوا: رضيت أن يجعل ولدك بشسع نعل كليب وليس بدون كليب وأنت سيد ربيعة وفارس نزار، فقال لا تعجلوا عليّ فليس يأتي الحديث من غير أهله، وأرسل إلى مهلهل إن كنت قتلت بجيرا بخاله كليب وطابت نفسك بثأرك وقطعت الحرب عن إخوتك فما أرضاني بذلك وأطيب نفسي بصلاحكم ولف شملكم ونعم القتيل أرضاك وأصلح أمر وائل وألف بينها، فأرسل إليه مهلهل إنما ولدك بشسع نعل كليب فاصنع ما بدا لك فانتهى الخبر إلى الحارث، وقد سرحت الجارية إبله فقال ويحك ردى جمالك فما لي اليوم من جمل ومن أي أناس أنت فذهبت مثلا، وقام به الغضب في قومه فهتف إلى الحرب، وقال في قتل ولده بجير يرثيه"[2] وينشد الحارث قصيدته الشهيرة التي يكرر فيها " قربا مربط النعامة مني"، والنعامة فرسه، أكثر من خمسين مرة في القصيدة، والتكرار هنا وبهذا الشكل يستحق أن نقف عنده قليلًا؛ لأنه ليس حلية لفظية أو تنميقًا لعبارة مفتعلة، وإنما هو تعبير جاد صادق كما وصفه الدكتور وهب رومية بقوله عن تكرار " قربا مربط النعامة مني" توشك أن تكون هذه العبارة بقصرها وتكرارها بلاغًا حربيًّا يعلن النفير العام – بلغتنا المعاصرة– فعلى كل من يسمع من قومه أن يلبس جلد النمر فقد هاجت الحرب من جديد".[3]

وعلى الطرف الآخر ينشد المهلهل قصيدته الشهيرة، على وزن قصيدة الحارث بن عباد (البحر الخفيف) والقافية نفسها ناقضًا كل ما قاله الحارث بن عباد ومكررًا " قربا مربط المشهر مني" في مقابلة " قربا مربط النعامة مني" وهذا السجال بين الشاعرين لم يسبقهما إليه أحد بهذا الكم من التكرار، صحيح أن المهلهل هو أول من ابتدع تكرار الشطر في الشعر في بداية حرب البسوس؛ إذ كرّر " على أن ليس عِدلًا من كليب" أكثر من عشرين مرة على رواية أبي هلال العسكري، وكذلك تكراره " ذهب الصُّلح أو تردوا كليبًا".[4]

---

١ شعراء النصرانية في الجاهلية (٢٧١/٣).

٢ كتاب بكر وتغلب، ص ٦٠، ٦١.

٣ شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٢٠٧ ، مارس ١٩٩٦م ، ص ٢٣٠.

٤ ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٨ ، بيروت ، لبنان ، مارس ١٩٩٨م ، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

وترى نازك الملائكة أنه " لا يخفى أن التكرار في هذه المواضع كلها علاقة كثيرة بظروف الشاعر النفسية وطبيعته البدوية، ولا شك أنه كان يلاحظ أن التكرار يثير الحماسة في صدور المحيطين به ويستفزهم للقتال ومن ثم استعمله" [1]

وإذا كان المهلهل هو أول من ابتدع التكرار كما قلنا، فإن تكراره قبل نقائضه على الحارث بن عباد كان تكرارًا بعيدًا عن النقائض التي نتحدث عنها هنا، ويعد تكرار الحارث بن عباد " قربا مربط النعامة مني" تأثرًا بتكرار المهلهل السابق لوقعة النقائض والذي أشرنا إليه، فالمهلهل هو من أصَّل فن النقائض وجعل من التكرار ثابتة صوتية ذات دلالة تخدم المعنى المراد والهدف من الإبداع الشعري.

ولو عدنا إلى قصيدة الحارث بن عباد، والناقضة لها قصيدة المهلهل، نجد أن الحارث بدأ قصيدته بداية مؤثرة وكأنه يعزي نفسه على فقد ابنه:

كُلُّ شيءٍ مصيرُهُ لِزَوالِي غَيْرُ رَبِّي وصَالِحِ الأعْمَالِ

وتَرَى النَّاسَ يَنْظُرونَ جميعًا ليسَ فيهِمْ لِذَاكَ من إحْتِيالِ

قُلْ لأُمِّ الأَغَرِّ تَبْكِ بُجَيْرًا حِيلَ بين الرِّجالِ والأمْوالِ

فالحارث يعزي نفسه كما قلنا لأن المُصاب جَلَلُ، والخطبُ عظيم، وهذه الافتتاحية لقصيدة الحارث ربما تكون افتتاحية منفردة، فعلى حد علمي لم أشهد مثلها في الشعر الجاهلي، ربما يعود ذلك لتفرد الحدث بكل ملابساته، ولكن المهلهل عندما يريد نقض القصيدة يبدأها بمقدمة تكاد تكون تقليدية في الظاهر، يقول:

هَل عَرَفتَ الغَداةَ مِن أَطلالِ رَهنِ ريحٍ وَديمَةٍ وعِزَالِ

يَستَبينُ الحَليمُ فيها رُسوماً دَارِساتٍ كَصَنْعَةِ العُمّالِ

قَد رَآها وَأَهلُها أَهلُ صِدقٍ لا يُريدونَ نِيَّةَ الإرتِحالِ

والذي ينظر إلى هذه الأبيات للوهلة الأولى يرى أنه لا علاقة بينها وبين مقدمة الحارث بن عباد (المَنقُوضة) ولكن بنظرة أعمق نجد المهلهل هو الآخر يوضح في هذه المقدمة الأطلال المدمرة التي تعصف بها الرياح وكيف أنها أصبحت قفرًا، وهذه انعكاس طبيعي لما يشعر به من حزن وأسى بعد مقتل أخيه، فقد تغيرت الدنيا أمامه بأسرها تبعًا

[1] السابق، ص ٢٦٧.

لحزنه الدفين في صدره، فالعلاقة بين مقدمة المهلهل ومقدمة الحارث بن عباد – حسب ظني– تدخل ضمن النقائض المستترة إن جاز لنا التعبير بذلك.

ويذكر الحارث بن عباد بعد ذلك ألمه وحزنه على ابنه القتيل، يقول:

ولَعَمْرى لأبكِيَنَّ بُجَيْرًا ... ما أَتَى الماءُ من رؤوس الجِبالِ

حِيلَ من دُونِهِ فَسَحَّتْ دُمُوعِي ... بِسِجالٍ كَمِثْلِ سَحِّ العَزالِ

لَهِفَ نَفْسي علَى بُجيرٍ إذا مَا ... جَالتِ الخيلُ يومَ حربٍ عُضَالِ

وتَساقَى الكُماةُ سُمًّا نَقِيعًا ... وبَدَا البَيْضُ مِنْ قِبابِ الحِجالِ

وَسَعتْ كُلُّ حُرَّةِ الوَجْهِ تَدعُو ... يا لَبَكْر! غَرَّاءَ كالتِّمْثَالِ

ويكون رد المهلهل مساويًا لقول الحارث، فحديث الحرث عن بجير يقابله في الوقت نفسه الحديث عن كليب، وألم ومرارة الفقد لدى الشاعر، يقول المهلهل:

يا لَقَومي لِلوَعَةِ البَلبالِ ... ولِقَتلِ الكُماةِ وَالأَبطالِ

ولِعَينٍ تَبادَرَ الدَمعُ مِنها ... لِكُلَيبٍ إذ فاقَها بانهِمالِ

مَاءُ عَيْنِي لَهُ فِدَاءٌ ونَفْسِي ... وجَبِيني وحَاجِبِي وقَذَالِي

ويَمِيني ومَنْكِبِي ثُمَّ صَدْرِي ... ثُمَّ مَا بَعْدَ ذَاكَ غَيْر اعْتِلالِ

لِكُلَيبٍ إذِ الرياحُ عَلَيهِ ... تَنْسِفُ التُرْبَ صَاحِ بِالأَذْيالِ

ثم تبدأ النقائض الفعلية بين الطرفين المتصارعين، عن طريق تمجيد كل منهما لقتيله، فالحارث يرى بأن ابنه بجير ليس مثله أحد، فهو سيد شباب ربيعة، ومن ثم لن يكون هناك صلح مع مقاتليه، وأنه لن تقر عينه إلا عندما يسقي صدور الرماح من دماء بني تغلب ثأرًا لابنه بجير؛ لأنه كان قد اعتزل الحرب ولم يشارك فيها منذ البداية ولكنه اكتوى بنارها بلا ذنب ولا جريرة إذ قُتل ابنه بغير وزر ولا جريرة، ولم يقتل في منازلة أو معركة، فهذا هو الظلم المبين بعينه مما يوجب عليه الثأر وأن يذيق قاتليه الموت؛ لأنهم قتلوه بشسع نعل، وهذا أمر ترفضه المروءة العربية، يقول الحارث:

يا بُجَيْرَ الخيراتِ لا صَلْحَ حتى ... نَمْلأَ البِيدَ مِنْ رُؤُوسِ الرِّجَالِ

وتَقَرَّ العُيُونُ بَعْدَ بُكاهَا ... حِينَ تُسْقِي الدِّما صُدُورَ العَوالِي

أصـــبحَتْ وائـــلٌ تَعـــجُّ مِـــنَ الحَـــرْ ب عَجِـــــيجَ الأجْمَـــــالِ بالأَثْقَـــــالِ

لَمْ أكُـــنْ مـــن جُناتِهـــا عَلِـــمَ اللَّـــــ ـــــهُ وإنِّـــي لحَرِّهَـــا اليَـــوْمَ صَـــالِ

قـــد تَجَنَّبْـــتُ وائِلًـــا كَـــيْ يَفِيقُـــوا فأبَـــتْ تَغْلِـــبٌ علَـــيَّ اعتِـــزَالِ

فأتَـــابُوا إلـــيَّ كَـــيْ يَقْتُلُـــوني وأَطـــاعُوا مقالـــةَ الجُهَّـــالِ

وأشَـــابُوا ذُؤَابَتِـــي بِبُجَيْـــرٍ قتلُـــوهُ ظُلْمًـــا بغيـــرِ قِتَـــالِ

فَـــرْعُ بَكْـــرٍ وخَيْرُهَـــا كـــانَ فيهـــا وابْـــنُ شَـــيْخٍ مُبَـــرِّرٍ مِفْـــضَالِ

قتلـــوهُ بِشِـــسْعِ نَعْـــلِ كُلَيْـــبٍ إنَّ قَتْـــلَ الكـــريمِ بالشِّـــسْعِ غَـــالِ

ويكون نقض المهلهل للمعاني الواردة عند الحارث أشد وأنكى، فالمهلهل صاحب الثأر وصاحب الحرب، وإذا كان الحارث يُؤبِّن ابنه القتيل، فإن المهلهل يرد عليه بتأبين أخيه أيضًا، وهو الأعلى والأعظم من بجير، وأنه ينقض تصميمه على عدم الصلح بتصميم مقابل لا نهاية له حتى الموت. وإذا كان الحارث سوف يملأ الصحراء برؤوس الرجال مقابل ابنه القتيل فإن المهلهل ينقض هذا التهديد بقتل بني بكر جميعًا بأخيه، وإذا كان الحارث يستنكر قتل ابنه بشسع النعل، فالمهلهل يؤكد هذا المعنى، يقول المهلهل:

إنَّنـــي زائِـــرٌ جُموعـــاً لِبَكـــرٍ بَيـــنَهُم حـــارِثٌ يُريـــدُ نِـــضالي

قَـــصَدُوني وقَـــدْ تَبَـــيَّنَ أنِّـــي صَـــاحِبُ الحَـــرْبِ مُـــذْمِرٌ فِـــي القِتَـــالِ

فَلَعَمـــري لَـــأَقْتُلَنَّ بِكُلَيـــبٍ كُـــلَّ قَيـــلٍ يُـــسَمّى مِـــنَ الأَقْيـــالِ

ولَعَمري لَقَـد وَطِئـتُ بَنـي بَكـ ـــرٍ بِمـــا قَـــد جَنَـــوهُ وَطْءَ النِّعـــالِ

صَـــدَقَ الحَـــارُ إنَّنـــا قَـــد قَتَلنـــا بِقِبـــالِ النَعـــالِ جَمْـــعَ الرِّجـــالِ

لا تَمَـــلَّ القِتـــالَ يـــا ابـــنَ عُبـــادٍ صَـــبِّرِ الـــنَّفسَ إنَّنـــي غَيـــرُ ســـالِ

ويذهب تهديد الحارث إلى أبعد مدى عندما يبدأ في تكرار شطر البيت – كما أشرنا– مهددًا المهلهل وبني تغلب جميعًا. فالحرب قد اشتعلت بعد سكون وهدوء، وأن إطفاءها أمر لم يعد بيد أحد، فاليأس والقتال والعزم هم الفيصل في هذه المعركة، وأنه إذا قال فعل وليس هناك أي بارقة أمل لوأد هذه الحرب فالحزن خيم عليه وفاضت دموعه

غزيرة، فمصابه في ابنه جلل وفادح، وأن على نساء تغلب الاستعداد للنواح على القتل، هذا النواح سوف يكون مستمرًّا لكثرة وتتابع القتلى؛ لأن فاجعته قد أشابت رأسه وتغير لونه، فأفضل القوم قد قتل ظُلمًا وأن بني تغلب ما هم إلا ضُلَّال، وسوف تدهسهم جميعًا سنابك الخيل، فالحزن قد سكن قلبه ومنع عنه الرقاد والخلود للنوم ، فقد طال ليلُه كأنه دهر، ولن يخرجه من هذا إلا حومة القتال والثأر غير عابئ بمقالة الجُهَّال من بني تغلب، فهو لن ينسى ثأره؛ لأن بجيرًا كان سيدًا شريفًا، مفضالًا ويجود بأمواله وقت المحن، وأنه قد خرج عن حكمته المعروفة وهدوئه المعتاد؛ فقتل شاب بهذه المواصفات قد غير حاله، فهو ابنه ولا يمكن أن يترك دماءه سُدى، فقد كان صاحب نجدة ومروءة وعزة، شريفًا أصيلًا، يعرفه الناس بهذه الصفات، فهو يفديه بعمه وبخاله وبكل ما يملك، يقول الحارث بن عباد:

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي لَقِحَتْ حَرْبُ وَائلٍ عن حِيَالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي لَيسَ قَولي يُرادُ لَا بَلْ فِعالي

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي فاضَ دَمْعي عليَّ بالتَّهْمَالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي لَيس دون اللِّقاءِ مِن إِعْتِلالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي جَدَّ نَوْحُ النساءِ بالإِعْوَالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي شابَ رأسي وأَنْكَرَتْهُ العَوَالِ

قرِّبا مَرْبِطَ النعامَةِ مِنِّي قرِّبَاها لِتَغْلِبَ الضُّلَّالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني كُلَّ شَقْرَا أو أَشْقَرٍ ذُبَّالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني طالَ لَيْلي على الليالِ الطِّوالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني لاعْتِنَاقِ الأَبْطَالِ بالأَبْطَالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني واعْدِلا عَنْ مَقَالَةِ الجُهَّالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني لَيْسَ قَلْبي عَنِ القِتَالِ بِسَالِ

قربا مربطَ النَّعامةِ مني لِبُجَيْرٍ مُفَكِّكِ الأَغْلَالِ

قربـــا مـــربطَ النَّعامـــةِ منـــي بِجَـــــوادٍ يَجُـــــودُ بـــــالأمْوالِ

قربـــا مـــربطَ النَّعامـــةِ منـــي لِحَلِـــــيْمٍ مُتَـــــوَّجٍ بالجَمَـــــالِ

قرِّبـــا مَـــرْبِطَ النعامَـــةِ منِّـــي لكـــــريمٍ ذِي نَجْـــــدةٍ ونَـــــوَالِ

قرِّبـــا مَـــرْبِطَ النعامَـــةِ منِّـــي للـــــشَّرِيفِ المُتَـــــوَّجِ المفْـــــضَالِ

قرِّبـــا مَـــرْبِطَ النعامَـــةِ منِّـــي لِبُجَيْـــــرٍ فَـــــدَاهُ عَمِّـــــي وخَـــــالِ

وما كان للمهلهل أن يقبل هذا التهديد من الحارث بن عباد، خاصة أنه خاض حربًا اقتربت من أربعين عامًا كان فيها القائد المُظفر والفارس الشجاع، وقد قتل عمدًا ابن الحارث بن عباد بشسع نعل كليب، فهل يقف صامتًا أمام تهديد الحارث المُدوّي الذي ملأ الآفاق آنذاك، وتناقله الناس ومضى به الركبان والرواة؟ هذا ضد العصر الذي تواجد فيه المهلهل، والصمت ليس من شيمه، والجبن أبعد ما يكون عنه ومن ثم عليه نقض كل جملة في قصيدة الحارث، حتى يكون الأعلى منه، والمنتصر عليه وعلى قومه، كما أن نقضه لقصيدة الحارث ليس وقفًا على صراع بين شخصين موتورين، وإنما هو صراع بين قبيلتين سوف يسجل التاريخ نتائجه، وستتناوله الأجيال جيلًا بعد جيل، تقص وتروي هذه الوقائع والنقائض المقترنة بها، لذلك أتى رد المهلهل الناقض أشد قوة وأنكى، تظهر فيه براعة الشاعر مقرونة بشخصية الفارس والقائد الذي ظل يشغل جزيرة العرب بوقائعه طيلة أربعين عامًا كما سبق وذكرنا.

فإذا كان الحارث يهدد بإشعال الحرب فالمهلهل يؤكد أنه الأولى بإشعالها؛ لأنه لا يخاف الموت، وأن أعداءه من بني بكر في ضلال مبين وجهل عميق، ومن ثم عليهم أن يتذوقوا مرارة الأهوال؛ لأنه لا يستطيع التعلل بوقف الحرب مهما كانت الأسباب، وإذا كان الحارث يهدد بنواح نساء بني تغلب، فالمهلهل يقابله بنواح نساء بني بكر، فهو نواح أشد وأقسى، وإذا كان الحارث قد شابت رأسه وتغير لونه فإن المهلهل كان الأسبق منه في ذلك، وإذا كان ابن الحارث قد جعل الليل كدرًا عليه، فإن ليل المهلهل كان كدرًا عليه منذ مقتل كليب؛ لأن الدهر غيَّب العزة والسؤدد بمقتل كليب، وأن تهديده واقع لا محالة؛ لأن فعله يسبق قوله، وإذا ما هدد الحارث نساء تغلب بالبكاء، فإن المهلهل سوف يهتك الأستار عن نساء بكر ويأسرهم، والحارث يؤكد أن فدا ابنه عمه وخاله (أي النسب من الطرفين) فالمهلهل يؤكد أنه الأولى بذلك لكليب، كما أن هلاك بني بكر أصبح واقعًا؛ لأن العداء تمكن منه ولن يصفو لهم يومًا أو يصالحهم، كل ذلك من أجل القيمة والعزة التي ذهبت

بموت كليب ودفنه تحت الرمال، فالحرب شاملة، والنار أُوقِدت كاملة، وأنه لبس لباس الحرب كي يستولد الحق والعدل من أضلع المستحيل، يقول المهلهل:

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِاعتِناقِ الكُماةِ وَالأَبطالَ

قَرِّبَا مَربَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِغُوَاةٍ فِي ضِلَّةٍ جُهَّالِ

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِكُلَيبٍ وكَيْفَ مِنْهُ اعْتِلالِي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... ثُمَّ نُوحَا نِيَاحَةَ الإِعْوَالِ

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... طَالَ لَيلِي وَأَقصَرَت عُذّالي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... ذَهَبَ الدَّهْرُ بِالعُلا والمَعَالِي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... إِنَّنِي حَرَّهَا مَدَى الدَّهْرِ صَالِ

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... وَاسأَلاني وَلا تُطِيلا سُؤالي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لَقِحَتْ حَرْبُهُمْ فَكَيفَ احْتِيَالِي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... سَوفَ تَبدو لَنَا ذَوَاتُ الحِجَالِ

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِفَتىً ماجِدٍ كَرِيم الفَعَالِ

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... إِنَّ قَولي مُشَابِهٌ لِفِعالي

قَرِّبَا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ مِنِّي ... لِكُلَيبٍ فِداهُ عَمّي وَخالي

والنقائض السابقة بين الفارسين والشاعرين المهلهل والحارث بن عباد ما هي إلا مقدمة تهديدية لكل منهما ضد الآخر، أما عندما يصبح التهديد واقعًا، وتلتقي السيوف المشهرة والرماح الصلبة، وتتعانق الرجال طعنًا وقتالًا، وتصول الخيول في ميدان الوغى فإن للنقائض هنا مذاقًا مختلفًا؛ لأنها تعبر عن واقع ملموس حيّ، وتبتعد عن الأحلام والتمني والتخيل، وتكون وقعة " العويرض"[1] هي اللقاء الأول بعد مقتل بجير بن الحارث بن عباد، وهي الوقعة الأولى التي يشارك فيها الحارث بعد تجنبه الحرب زمنًا طويلًا، وهذا اليوم أيضًا هو اليوم الأول الذي تنتصر فيه بكر على تغلب، وإذا كان ميزان القوة قد

١ ينظر: كتاب بكر وتغلب، ص ٦٩.

تغير على أرض الواقع وفي ميدان المعركة، فإنه قد تغير أيضًا في المعارك الكلامية المصاحبة للوقعة، إذ نجد أننا أمام نمط جديد من النقائض لم نعهده فيما سبق ولم نلحظه حتى في النقائض التالية زمنًا لهذه الوقعة، فنجد أننا أمام ثلاث قصائد لشاعرين، فالحارث بن عباد يقول شعرًا، فينقضه المهلهل، فيحاول الحارث نقض النقض بنقض جديد، فيأتي بقصيدة ثالثة، والقصائد الثلاث على قافية واحدة وجميعها على وزن البحر (الوافر).[1]

ويبدأ الحارث هذه المنازلة القولية بالفخر بالنصر على بني تغلب قتلة ابنه، وأنهم أهل القوة والجسارة في أرض المعركة، ويخص المهلهل خصمه اللدود ومكمن ثأره ومنتهى حقده بأن كليبًا لو خرج من قبره لعلم بأن أخاه شر زير وشر البشر، وأن بني تغلب لو قُتِلَتْ جميعًا في بجير ابنه لكان ذلك ثمنًا رخيصًا لابنه الفقيد، يقول الحارث:

كأنَّا غُدْوَةً وبني أبينا ... غَدَاةَ الخَيْلُ تُفْزَعُ بالذُّكُور

ضَراغِمُ سَاوَرَتْ في الحيِّ يُحْمَى ... عليها كُلُّ ذِى لِبَدٍ حَصُورِ

بِجَنْبِ عَوَيْرِضٍ لمَّا التقينا ... ونَارُ الحربِ ساطعةُ السَّعِيرِ

فَحَامَ مُهَلْهِلٌ لمَّا التقينا ... وَعَرَّدَ حين مَلَّ من الهَرِيْرِ

فَلَوْ نَشَرَ المَقابِرَ عن كُلَيْبٍ ... لَخُبِّرَ في الحِفَاظِ بِشَرِّ زِيْرِ

ولو قُتِلُوا جميعًا في بُجَيْرٍ ... لَكَانُوا فيهِ كالشَّيْءِ اليَسيرِ

١ القصائد في السابق ص (٦٩- ٧٣).

الخاتمة:

لعله من المعروف في دراسة تاريخ الأدب العربي أنه عندما تذكر النقائض ينصرف الذهن كلية إلى النقائض في العصر الأموي وإلى رموزها المشهورة جرير والفرزدق والأخطل، وكأن البداية الحقيقية للنقائض . وهذا المفهوم يعد من المسلمات التي ربما تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل.

لكن حقيقة الأمر أن فن النقائض بدأ مع ظهور الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، ومن أوائل هؤلاء الشعراء المهلهل بن ربيعة ، وهو الذي أصل لهذا الفن في الشعر العربي منذ الجاهلية ، وتبعه شعراء كثيرون في العصر الجاهلي حتى اكتمل هذا الفن وأينع تماما في هذا العصر. [1]

والذي نحب التأكيد عليه هو أن النقائض بمدلولها العلمي الصحيح هي تلك النقائض التي وجدت عند المهلهل وشعراء الجاهلية من بعده، إذ كانت خالية تماما من الهجاء المقذع بما يتناسب مع أخلاق وقيم عرب هذا العصر . وكانت النقائض انعكاسا حقيقيا لقيمهم ومبادئهم بالرغم أن أسباب النقائض عند شاعرنا وشعراء الجاهلية من بعده أسباب حقيقية وعداء حقيقي قائم بين طرفي النقائض ، وعبروا عنه بالفخر بالثأر والتهديد بالقتل ولم يتجاوزوا إلى الهجاء والسب .

لذلك أظن أن النقائض التالية للعصر الجاهلي والتي شابها الهجاء المقذع ربما حولها عن غرضها الفني الحقيقي من نقائض إلى هجاء، وشتان بين الأمرين. لذلك أميل إلى الظن بأن مصطلح النقائض يطلق على نقائض العصر الجاهلي أما ما ظهر بعد ذلك فيعد تطويرا لهذا الفن بإدخال الهجاء عنصرا أساسيا فيه.

أما عن المهلهل فقد أرثى لهذا الفن بكل جوانبه، بل لا نبالغ إذا قلنا بأن النقائص بدأت عند المهلهل كفن قولي، واكتملت عناصره الفنية وملامحه الموضوعية المتعددة عنده أيضا، ومن ثم مهد الطريق لكل الشعراء الذين تبعوه بعد ذلك.

[1] – ينظر : النقائض في الشعر الجاهلي ، مرجع سابق.

أهم المصادر والمراجع:

- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، الدكتور صلاح الدين الهادي، دار الثقافة العربية، القاهرة، (د.ت).
- الأدب الأموي، الدكتور صلاح رزق، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٥م.
- تاريخ النقائض، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٤م.
- تاريخ النقائض، مرجع سابق.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثامنة، القاهرة، ١٩٨٧م.
- شعر الحارث بن عباد توثيق ودراسة موضوعية وفنية ، حنان مصطفى محفوظ ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة الزقازيق ، ٢٠١٩.
- شعر الحارث بن عباد، توثيق ودراسة موضوعية وفنية، حنان مصطفى محفوظ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠١٩م.
- شعراء النصرانية في الجاهلية ، الأب لويس شيخو ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، (د.ت).
- شعرنا القديم والنقد الجديد، الدكتور وهب رومية، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٢٠٧ ، مارس ١٩٩٦م.
- القاموس المحيط ، للفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي ، ٧٢٩هـ – ٨١٧هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٨ ، بيروت ، لبنان ، مارس ١٩٩٨م.
- كتاب بكر وتغلب ابني وائل ، مطبعة نخبة الأخيار ، ١٣٠٥هـ.
- لسان العرب ، لابن منصور ٦٣٠هـ – ٧١١هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٩م.
- النقائض في الشعر الجاهلي، الدكتور / عبدالرحمن محمد الوصيفي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٤م.